حضور العشرية السوداء في الرواية الجزائرية قراءة في نماذج مختارة

Presence of The Black Decade in Algerian Novel Reading from selected models

Dr. Lahiani Faiza
University Ahmed Draia Adrar – Algeria
Email: adrarfaiza@univ-adrar.edu.dz ORCID: https://orcid.org/0000-0002-2527-162X

Abstract

Since the beginning of the nineties, the novelist scene in Algeria has clashed with a number of political, economic and social events that, in turn, monitored the overall conditions prevailing in the contemporary history of Algeria, and considering literature a reflection of the state of society and an expression of the lives of its members, it was necessary for Algerian writers to monitor the most important issues that resulted from the Algerian crisis, which was launched It is the black decade, including Muhammad Sari, Bashir Mufti, Yasmina Khadra, Ahlam Mosteghanemi and others. This study will attempt to represent the presence of the black decade and its impact on Algerian society at the time by reviewing some novel models.

Keywords : *Algerian Novel, Black Decade, Nineties, Literature, Models.*

الملخص: لقد اصطدم المشهد الروائي في الجزائر منذ بداية التسعينات بجملة من الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي رصدت بدورها مجمل الأوضاع السائدة في تاريخ الجزائر المعاصر، وباعتبار الأدب انعكاسا لحالة المجتمع وتعبيرا عن حياة أفراده؛ كان لزاما على أدباء الجزائر رصد أهم القضايا التي نتجت عنها أزمة الجزائر التي أطلق عليها العشرية السوداء، ومنهم: محمد ساري، بشير مفتي، ياسمينا خضرا، أحلام مستغانمي، وغيرهم. وستحاول هذه الدراسة أن تمثل لحضور العشرية السوداء، وأثرها على المجتمع الجزائري آنذاك عبر استعراض بعض النماذج الروائية.

توطئة: شهد الأدب الجزائري المعاصر تغيرا ملحوظا في السنوات الأخيرة من القرن الماضي متأثرا بالأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها الجزائر. ذلك التأثير أعطى ميزة خاصة لأدب تلك الفترة باعتباره الوليد الشرعي لها، حيث لجأ بعض الأدباء والمثقفين آنذاك إلى الهجرة؛ بحثا عن ملاذ آمن لإفراغ كبتهم وإخراج إبداعاتهم إلى العلن، في حين أن بعضهم الآخر لزم الصمت نتيجة الضغوطات حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الانتحار وهذه الحال كانت

بداية سنة 1988م إذ كانت فاجعة بالنسبة للوسط الثقافي. فقد انتحر صالح زايد أحد المفكرين الجزائريين النزهاء.[1]

وبعد المخلفات التي خلفها الاستعمار الفرنسي من فقر وبطالة وأمية مما أدى ذلك إلى الدخول في دوامة إحباط نفسي، وما إن استعادت الجزائر حريتها حتى وجدت نفسها أمام صدمة قاسية، ولم يعد الفرد الجزائري يستوعب ما يحصل، وانتهى مسار تلك التأزمات بانفجار الوضع في أحداث أكتوبر 1988م، وأخذت التجربة بعد هذا التاريخ منعطفا حاسما غيّر من نمطيتها الجاهزة.[2] وفتح المجال أمام التعددية الحزبية التي كان من أهم تشكيلاتها الأحزاب السياسية التي عانت التهميش منذ استقلال الجزائر، ثم تأسس التيار الإسلامي، الذي استطاع حشد عدد كبير من الدعاة وأئمة المساجد، وأضحت كلمته مسموعة وسطهم؛ لأنهم يرون فيه صورة المصلح المرشد القائم إلى وضع أفضل، ونشأ بعد ذلك صدام بين الجيش والجبهة الإسلامية للإنقاذ، مما أدى إلى تشتت المجتمع الجزائري، وخلق هوة ساهمت بتفريغ الإرهاب الذي ضرب بقوة بين صفوف أبناء الفئات الشعبية التي كانت القاعدة الاجتماعية والسياسية لهذه الحركات الاجتماعية والشعبية باعتبار فئة الشباب هي الأكثر فاعلية في المجتمع،[3] لكن الشباب في تلك الفترة أصبح لا يميز بين الحق والباطل؛ بسبب تعدد التيارات المتزاحمة فيما بينها، فوقعوا في فخ الفراغ النفسي إثر كل التغيرات، فكان لابد من سد الثغرات إما بالسلب أو الإيجاب، فسار ضمن مخططات وأهداف لم يكن على دراية بها، ليجد نفسه ضمن توجهات مختلفة.[4]

وباعتبار الأدب انعكاسا لحالة المجتمع، وتعبيرا صحيحا لحياة أفراده؛ كان لزاما على أدباء الجزائر أن تكون أقلامهم سيالة لترصد القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تمخضت عنها أزمة الجزائر، والتي أطلق عليها العشرية السوداء، ومن ثم جاءت الدراسة الموسومة بالعشرية السوداء في الرواية الجزائرية قراءات نقدية لنماذج مختارة، لتجيب عن تساؤلات رئيسية مفادها:

- ما هي مواضيع واهتمامات الرواية الجزائرية في العشرية السوداء؟
- ما هي ملامح الرواية التسعينية في الإبداعات الأدبية الجزائرية؟

- هل تمكن الروائيون من تصوير ورسم الواقع المرير للمجتمع الجزائري بكل فئاته في تلك الفترة؟

- ما هي الشرائح والفئات الأكثر معاناة في تلك الحقبة؟

1- إشكالية مصطلح أدب التسعينات في الجزائر:

لعل الحديث عن أدب العشرية السوداء أثار بلبلة حول إشكالية المصطلح بين المهتمين بالشأن النقدي الروائي، فالأدباء والنقاد الجزائريون لم يجمعوا على مشروعية مصطلح من المصطلحات المتداولة فيما يتعلق بأدب التسعينات، فقد أطلقت عدة تسميات لتسعينيات من القرن العشرين، كفترة الأزمة، فترة المحنة، عشرية الدم، فترة الفتنة، العشرية الحمراء... إلخ. ومعظم التسميات في أوساط اجتماعية إعلامية وسياسية... باستثناء بعض المتابعات الصحفية المستعجلة في الصفحات الثقافية، وبتوصيفها بشخصين يلخصان لوحدهما الحكم النقدي النهائي بحيث وصفت حينا بالأدب الاستعجالي[5] وهو المفهوم الذي رددته الأوساط الفرانكفونية في مقاربتها النقدية ومعالجتها الصحفية، وأطلقوا عليه الأدب الاستعجالي، وسمي بأدب المحنة[6] من قبل النقاد والدارسين الجزائريين.

يشير جعفر بالوس إلى أن إشكالية هذا المصطلح أخذت مناحي متعددة في الأوساط الجزائرية بقوله: "لقد أطلق بعض من زملائنا الأدباء والباحثين الجامعيين على الكثافة الأدبية[7] في الفترة الممتدة من 1990م إلى 2000م اصطلاح كتابة المحنة وكتابة الاستعجال.[8]

فمن النقاد الذين عارضوا تسمية الأدب الاستعجالي أو أدب العشرية السوداء منهم: واسيني الأعرج الذي كان من أشد المنتقدين لهذا المصطلح، واعتبر هذا الأدب مجرد توثيق لما حدث في فترة العشرية السوداء... إلخ.[9] كما يرفض الطاهر وطار مصطلح الأدب الاستعجالي في الأدب، إذ يقول: "إنني لا أعترف بمصطلح الأدب الاستعجالي في الأدب، وإن لم نكن نقصد بالاستعجال التهافت من أجل الظهور، رغم حداثة التجربة والموهبة ... إلخ. فأدب التسعينات مظهر اقتضته الحاجة في سنوات الإرهاب.

ويذهب أحمد منور إلى تسمية الإنتاجات الأدبية المتزامنة مع الفترة الممتدة 1990-2000م بأدب الأزمة، وتدخل رواية "الورم" في سياق ما أنتجته العشرية من أعمال روائية بالعربية والفرنسية بأسماء مشهورة وأخرى مغمورة تراكمت مع مرور الأيام لتشكل ما يمكن تسميته بأدب الأزمة.(10)

يشير منور إلى النماذج الروائية التي تفردت وانشغلت في أعمالها الفنية لمضامين الحرب الأهلية في الجزائر، كواسيني الأعرج، طاهر وطار، إبراهيم سعدي، أحلام مستغانمي وفضيلة الفاروق.

كما يشير أيضا عبد الوهاب العوشي إلى أن أدب التسعينات هو أدب مسلح لما تضمنته مظاهر العنف والقتل... وسيظل النقاد يأخذون عن هذا الأدب؛ لافتقاره الوقائع إلى العمق وغياب الكاتب الجمالي على حساب الموقف، ويتجلى ذلك في رواية "خرفان المولى" التي حفلت بمشاهد القتل الإرهابي والتعذيب لـ "ياسمينة خضرا".(11)

لقد أصبحت هذه الروايات مثل: "فتاوى زمن الموت" و"بوح الرجل القادم من الظلام" لإبراهيم سعدي و"ذاكرة الماء " لواسيني الأعرج وغيرها بمثابة سندات تاريخية شهدت على أهم المراحل في تاريخ الجزائر.

ولقد كان الأدب الاستعجالي يتخبط في خضم الخطابات السياسية والأيديولوجية في المحاولات الإبداعية أو المحاولات النقدية، وقد طمست هاته الهيمنة ثلاث فترات متمايزة من تاريخ البلاد.... ولهذا لا تكاد تخلو نصوص فترة التسعينات من التعبير عن هول الأزمة وما خلفته من نزيف في النسيج الاجتماعي.(12)

2- الرواية التسعينية والعشرية السوداء:

إن تحول الصراع السياسي إلى صراع دموي بين مختلف الأيديولوجيات دفع بالكتابة الروائية إلى مواكبة الأزمة، فنتج عن ذلك نوع سردي جديد تقلده مجموعة من الكتاب في النصوص الروائية والقصصية باللغتين الفرنسية والعربية تنبع من الأوضاع المفجعة التي عاشتها الجزائر منذ أحداث

1988م. وسنتعرض في دراستنا إلى عرض بعض النماذج الروائية باللغتين العربية والفرنسية التي جاءت نصوصها التسعينية لصيقة بالفاجعة التي ألمت بالجزائر في العشرية السوداء.

سايرت الرواية الجزائرية أوضاع المجتمع الجزائري سواء كان ذلك قبل الاستقلال أم بعده، فرصدت بذلك مختلف التحولات والتمزقات التي عرفها المجتمع الجزائري "فقد استطاعت أن تصل إلى العالم بفضل الروائيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية: مولود معمري، مولود فرعون، محمد ديب، وبفضل الروائيين الذين يكتبون باللغة العربية: الطاهر وطار، عبد الحميد بن هدوقة، مرزاق بقطاش، أحلام مستغانمي".[13]

مرت الجزائر بمرحلة عصيبة في تاريخها كان لها بالغ الأثر في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، وهي مرحلة العشرية السوداء، وكان للأدب دور في إبراز ملامح المجتمع الجزائري في هذه الفترة، وذلك من خلال نصوص روائية مختلفة، إذ "جاء أدب التسعينات ليؤرخ لجزائر الدم والألم، جزائر قتل الجمال وحجب الضياء"،[14] حيث استطاع الكثير من المبدعين الجزائريين إنتاج نصوص روائية تحمل تجربة عميقة ولصيقة بالفاجعة التي ألمت بالجزائر في العشرية السوداء، وكلها نصوص مشحنة بالنقد الأيديولوجي بسبب العنف الواقعي الذي أصبح عنفا لغويا روائيا طغى كموضوع على النص السردي التسعيني: "وهكذا كانت الرواية التسعينية من ناحية التيمات تحمل طابع التماثل والتشابه، وهي نفس الملاحظة التي نجدها في رواية العشرية السوداء التي سبقتها، وهذا يعني أن رواية التسعينات شأنها شأن رواية المرحلة السابقة لها تتميز بدورها بتمركزها حول هموم الجماعة، ومن ثم بالواقع العام للمجتمع، وإذا كانت هذه الظاهرة بالنسبة للنص الروائي الخاص بعهد الأحادية الحزبية يمكن إرجاعها إلى اشتراك الروائيين في تبنيهم بهذه الدرجة أو تلك الواقعية الاشتراكية أهداف نضالية وطبقية".[15] وسنستعرض بعض النماذج الروائية التي عبرت بعمق وألم معاناة الشعب الجزائري في فترة التسعينيات.

1- روايات ياسمينة خضرا:

ياسمينة خضرا هو الاسم المستعار للكاتب محمد مولسهول، حيث عرف من خلال كتاباته أنه

ينتقد الحماقات البشرية وثقافة العنف، ويتحدث عن جمال وسحر وطنه الجزائر. اشتملت رواياته على أحداث مختلفة عايشها خلال العشرية السوداء باعتبار أنه كان ضابطا في الجيش الجزائري، فكانت الأحداث المأساوية جزءا من تاريخه الشخصي، ويتجسد ذلك في روايتيه: "مكر الكلمات" و"الكاتب" حيث انبرى في الأولى خصوصا إلى استدعاء ذكرياته الخاصة في حرب الجماعات الإرهابية لاسيما والنص عبارة عن سيرة تروي تفاصيل تقاعده من الجيش الجزائري وهجرته إلى المكسيك في تلك الرحلة التي شهدت هجرة جماعية لأغلب الكتاب.[16] كانت هذه النصوص شهادات حية عاينها عن كثب الكاتب ياسمينة خضرا حيث يروي يوميات الضابط الذي كأنه الكاتب في تعقب الجماعات الإرهابية وبقايا المجازر في المداشر والقرى التي كان يدخلها بجيشه عقب كل عملية دموية.[17] فلا أصدق تعبيرا عن المأساة الوطنية إلا على اللسان الذي عايشها، وهذا ما حصل مع الكاتب ياسمينا خضرا فجسد ذلك في أعماله الإبداعية والتي من روايته "سكر الكلمات".

تتجلى الأزمة التسعينية عند "محمد مولسهول" في تجربته الحربية مع الجيش الجزائري من خلال روايتي: "بم تحلم الذئاب" و"خرفان المولى"، وهما نصان يشتملان على كل مقومات أدب الحرب، وعلى رأسها مقوم التجربة الشخصية والمشاركة الفعلية في الوقائع الحربية، وهو ما توفر لياسمينا خضرا وحده دون غيره من الكتاب الذين كتبوا عن جرائم الحرب[18] وبهذا يمكن اعتبار محمد مولسهول عينا فاحصة بدقة لجل ما كان يجري خلال العشرية السوداء.

وبنظرة متفحصة لرواية "بم تحلم الذئاب" جاء عنوانها جملة إنشائية استفهامية تفتح المجال أمام القارئ لاحتمالات مختلفة عن طبيعة الذئاب المقصودة، إن كانت ذئابا حيوانية؟ أم أن هناك نوعا آخر من الذئاب يقصده الراوي؟ غير أن المؤكد هو أن هذه الذئاب تحمل كل الصفات السيئة؛ لأنها حيوانات مخادعة، تلتهم فرائسها بدون أي رحمة، وقد جسد العنوان صورة بيانية، وهي استعارة مكنية؛ لأن الكاتب شبه الذئاب بالبشر، فقد كانت ذئاب الرواية المقصودة هنا متمثلة في أناس تخلّوا عن قيمتهم الإنسانية النبيلة وغاصوا في أحلام لا طائل منها.

"بم تحلم الذئاب" رواية بوليسية استعجالية، نموذج ناضج من أدب المحنة أو الأزمة، كتبت باللغة الفرنسية، وقام أمين الزاوي بترجمتها إلى اللغة العربية، ترتكز الرواية على تتبع مسار شاب جزائري وهو وليد، الشاب الفنان البسيط الذي رمت به الأقدار السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية في متاهة العنف، إذ ينحدر الشاب شيئا فشيئا إلى هاوية الإرهاب، وتلك حال كثير من شباب الجزائر الذين انقادوا في ظل الفراغ السياسي إلى المضي إلى طريق الظلام الذي حولهم إلى ذئاب بشرية تحترف ممارسة العنف.

يضاف إلى هذه الشخصية وليد نافا، شخصيتان ثانويتان في الرواية، هما: يحي الموسيقى، سيد علي الشاعر الذي يُقتل في منزله، ويزعج الإرهابيين ببسمته الساخرة التي ارتسمت على وجهه حتى بعد موته، فتختلف النهاية من فنان لآخر.[19] هذا وركزت هذه الرواية على إبراز شخصية المثقف الجزائري بمختلف انتماءاته المهنية والأيديولوجية؛ ليكون الشخصية المركزية داخل العمل السردي.[20]

كما تتجلى بعض الملامح الاجتماعية لجزائر التسعينات في هذه الرواية حيث يتقطف السارد بعض المشاكل الاجتماعية والظواهر المنبوذة، كآفة المخدرات، انتشار أماكن الرذيلة، الاغتصاب، الهجرة، التسول... إلخ، والمقاطع التالية تبرز هذه المظاهر:

- "كثيرا ما سألت نفسي عما يبقيني في هذا المخبأ المريب المسكون بمستهلكي الكوكايين والسحاقيات واللصوص الذين هم في نقاهة.

- سأتدبر أمري وأحصل على وثائق كي أغادر هذا البلد إنه ما عاد بلدي.

- ... بالقصبة كان من المستحيل إيجاد شخص يواسيك دون أن يمنحك فرصة كي يغرس فيك بعض العقائد. كانوا يستغلون الحالة النفسية للضالين وضعفهم لربطهم بالحركة".[21]

يصف السارد الأوضاع الاجتماعية المزرية لجزائر التسعينات، فبالتطرق إلى ذكر الفقر والبؤس الذي آلت إليه بعض العائلات التي استغلت حالة الضعفاء واستعبدتهم لحساب تحقيق المصالح الشخصية، والمتن الروائي يكشف ذلك: "استدرنا وراء الأحياء القديمة... يتأوه الشيخ في غرفة

الاستقبال... سكن المرض أعماقه من دون شفقة... تميل الأم من شدة النعاس بجانب سريره... ما عاد نافع يحتمل التفرج على بؤسهم وكله عجز... الفقراء يتهمون الأغنياء على أنهم مصدر آلامهم، أما الأغنياء يرون أنه من الواجب على الفقراء أن يلوموا أنفسهم فقط".[22]

اهتم ياسمينة خضرا في عمله بدرجة أكبر بالطبقة المثقفة كما عرض الفضاء المكاني المتمثل في مدينة الجزائر، ومناطقها كالبليدة والقصبة وغيرها، ما جعل فضاء المأساة مجسدا يصور العنف الصراع الطاغي في تلك الفترة بأبعاده الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية. كما تنوعت أسماء الشخصيات الإرهابية، وتعددت أدوارها: (أمير كتيبة، قائد، مقاتل بسيط، الجيا، الميا، الفيس...)، كما أعطى السارد صور مختلفة عن المرأة التسعينية تمثلت في المرأة الإرهابية (هند)، المرأة البرجوازية (صونيا)، المرأة الصامدة أمام قصر المجتمع (حنان)، كما أشار إلى أطراف الصراع: (الجماعات الإرهابية فيما بينها من جهة، ونزاعاتها ضد السلطة من جهة أخرى).

2- روايات بشير مفتي:

بشير مفتي صحفي وكاتب وروائي جزائري، له ثلاث مجموعات قصصية، وتسع روايات، منها: "أرخبيل الذئاب"، "شاهد العتمة"، "دمية النار"، "غرفة الذكريات"، "المراسيم والجنائز". وقد تميزت كتاباته الروائية كونها إصرار على الحياة ورغبة في الصمود، بخلاف مجموعته القصصية الأولى وجدت كتاباته الروائية أصداء إيجابية في الأوساط النقدية، خاصة رواية "المراسيم والجنائز". وقد تميزت معظم رواياته بمعالجتها للحالة المزرية للمجتمع فحرب العشرية أقحمت الصغير والكبير، الرجل والمرأة، الأطفال والشيوخ، الظالم والمظلوم. فلم تكن هناك رحمة أو تمييز فدخلت الجزائر في دوامة من العنف الأعمى. فكان الموضوع الأبرز في نصوصه الإبداعية الروائية معالجة محنة المثقف الجزائري خلال فترة العشرية السوداء، فالأحداث الدموية التي عاشتها الجزائر واغتيال العديد من المثقفين والأدباء جعلت الكاتب الجزائري يبدع بقلمه، ويساير الأحداث، ويسقط أفكاره المتأججة في لحظة ما، ومن واقعه المرير والمتخم بالأحداث.

إن أبرز روايات بشير مفتي المشخصة لمقاومة الأزمة الوطنية رواية "المراسيم والجنائز" التي تلفت انتباه القارئ بعنوانها، فالتقاء الكلمتين مجموعتين ومعرفتين يشكل خطوة أولى نحو الدخول في مأساة الحضور في جنائز التسعينات واقعيا وثقافيا، إنها رواية كباقي روايات العشرية السوداء تعكس موقف المؤلف من الوضع، فهو يكشف عن العلاقة المتوترة بين الكاتب والواقع، ذلك الواقع الذي سيطر عليه الخوف والهرب من الأوضاع. فإما أن يكتب المؤلف بشجاعة منه وينزع الأقنعة، أو يفضل السكوت.

رواية "المراسيم والجنائز" سايرت وعايشت أحداث التسعينات، توفرت على مميزات الرواية التسعينية؛ إذ عملت على اقتحام الراوي عالم المثقفين في عالمه الخيالي ليكون معظم أبطال روايته شاهدين على المأساة التي مر بها الوطن، ومن بين الشخصيات التي استطاع الكاتب أن يصور من خلالها صورة المجتمع في تلك الفترة: شخصية السارد، وهو شخصية محورية في الرواية، هو كاتب وأستاذ جامعي صحفي، ينتمي إلى عائلة فقيرة، وشخصية فيروز هي أيضا شخصية محورية ثانية صحفية بجريدة الحرية، هاجرت بعد تعرضها للتهديد من قبل المتطرفين، وغيرها من الشخصيات الأخرى.

صورت الرواية شتى أنواع الخوف وما نجم عنه من مآسٍ، فمثلا شخصية حميدي ناصر حصل له انهيار عصبي، وأدخل مصحة نفسية بعد أدائه الخدمة الوطنية، وهاهي الطالبة الجامعية وردة تنتحر بعد استغلالها جسديا، وجنون والدها بسبب تمردها ومغادرتها بيت العائلة. ضف إلى ذلك حال العجوز المثقفة "رحمة" التي ماتت بالقرب من بيتها إثر انفجار قنبلة.

إذاً رواية "المراسيم والجنائز" صورت حالة المثقف الجزائري في فترة العشرية السوداء الذي شكلته فئة من الشباب الصحفيين والأساتذة المحاصرون بالعنف من كل الجهات، إنها تصور مأساة وطنية، العنف بكل أشكاله. ففي الرواية: عنف الخطب النازية، والسيارات المفخخة، والذبح، والرؤوس المقطوعة، وأشلاء الأجساد المتطايرة، وكثرة الجثث المشوهة.[23]

لقد نقل لنا الراوي مظاهر الأزمة من خلال الرواية من خلال اللغة، وصور من الواقع المملوء بين الصراع القائم بين الإسلاميين والسلطة.

3- روايات محمد ساري:

أستاذ السيميولوجيا ونظرية الأدب بجامعة الجزائر، له مؤلفات في النقد العربي، المتمثلة في ما يلي: "محنة الكاتبة"، "الأدب والمجتمع"، "وقفات في الفكر والأدب والنقد". كما له إبداعات روائية مختلفة، منها: "السعير"، "على جبال الظهرة"، "الورم"، "القلاع المتآكلة"، وله عدة كتب مترجمة من الفرنسية إلى العربية.

محمد ساري كغيره من الروائيين الذين كتبوا عن العشرية السوداء، وهذا ما جاء في روايته "القلاع المتآكلة"، إذ عرض لنا أجواء العنف وعمليات التخريب وحالات الانهيار التي آل إليها المجتمع الجزائري في تلك الفترة، فيغوص في بشاعة الأحداث؛ إذ أنها أحداث أكثر مأساوية، يشبهها الراوي بالزوبعة الجارفة أحيانا، وبالوحشية أحيانا أخرى. إنها فوضى العنف والاستبداد.

تدور أحداث الرواية حول قصة المحامي الأعزب الذي عاش هو ورفيقه رشيد أحد سكان (عين الكرمة) حياة العنف والجرائم الشنيعة التي اقترفتها الجماعات الإرهابية المسلحة في حق الشعب، حيث ركز الروائي على النتائج السلبية التي خلفها فعل العنف من خسائر مادية ومعنوية، فزيادة على القتل والحرق والتعذيب عاش سكان عين الكرمة حياة الرعب والانهيارات النفسية والقلق. وصف الكاتب مختلف جوانب الحياة التي عاشها المجتمع خلال تلك الفترة من تأزم اقتصادي وتفكك اجتماعي وصراع سياسي، وفي ظل هذه الحياة المأساوية السوداء تجسدت أزمة المثقف الجزائري المهمش الذي كان يحمل روحا وطنية، وساهم قدر المستطاع في التخفيف من العنف عن طريق التفاوض وإيجاد الحلول المناسبة.

ورد في رواية "القلاع المتآكلة" أسماء لجماعة من الإرهابيين، وهم: (ياسين، عبد الجبار، عبد الحميد)، إذ تجسدت صورة الإرهاب في الرواية في القتل، التخريب، النهب لا غير؛ للحصول

على ما يريدونه بالقوة والعنف بنوعيه. ركز الروائي على ثلاث شخصيات من الإرهابيين يقطنون نفس الحي، ذكر جرائمهم الشنيعة لتحقيق هدفهم وهو بناء الخلافة الإسلامية على أعقاب هدم النظام السائد في البلاد: "كلمني عن الانتخابات التي ستنظم بعد أسبوعين في الأيام الأخيرة، كان موضوع الانتخابات محور نقاشات شاحنة بين الإخوان في الإقامة... أمرني بالحضور؛ لأن مصير الإسلام يتوقف على هذه الانتخابات التي ستمهد الطريق نحو إقامة الخلافة الإسلامية"[(24)] يتجلى من خلال المقطع أن الجماعة الإرهابية تحلم بالسلطة وتأسيس دولة إسلامية خاصة بها، فالانتخابات ستحدد المصير.

وإذا نحن تصفحنا فضاء الرواية فمدينة "عين الكرمة" هي مسرح الأحداث، جعلها الراوي من الفضاءات الرئيسية في عمله الفني لوصف المأساة التي حدثت بها، من أحداث دموية وعنف وتقتيل وغيرها. هذه الأحداث التي غيرت من جمال مدينة "عين الكرمة"، أحداث غيرت وأوقفت عملية التسيير والبناء لتعم الفوضى بالحي، وتزدحم المدن بالجثث، وتظهر الهجرة نحو المدن وترك الريف؛ مما يؤدي إلى توقف النشاط الزراعي، جاءت كل الفضاءات مأساوية، فالمدرسة غدت مسرحا للصراع الأيديولوجي، والمقهى والشارع يغطيه العنف والدموية.

وتعد رواية "الورم" لمحمد ساري التي تسبق رواية "القلاع المتآكلة" في الزمن رواية عاصرت فترة العشرية السوداء، حيث أنتجها سنة 2003م، وهي من العناوين التي تثير الخوف والرعب في قلوب القراء؛ لأن كلمة ورم في الطب هي المرض الخبيث "السرطان"، والكاتب يقصد بأن ما حدث في العشرية السوداء كالمرض الخبيث الذي ينخر جسم الإنسان، وهذا لأن العنف قد نخر البلاد. الرواية تتحدث عن جماعات إرهابية تسيطر على المجتمع الجزائري، وتعادي وتقتل كل من يتعاون مع السلطات الجزائرية، إلا أن السلطة لم تقف مكتوفة الأيدي، وإنما كانت تحارب كل من يقف مع الإرهاب، ويتعاون معه، وذلك للحد من تياره المتواصل.

4- روايات أحلام مستغانمي:

روائية جزائرية مشهورة، لها أعمال مختلفة، أهمها: "على مرفأ الأيام"، "كتابة في لحظة عمري"،

"ذاكرة الجسد". تعد روايات أحلام مستغانمي مرجعا مهما في دراسة الفترة التسعينية بالجزائر ابتداء بثلاثيتها: (ذاكرة الجسد، عابر سرير، فوضى الحواس الأسود يليق بك).

ففي رواية "ذاكرة الجسد" يعلن الراوي عن بداية زمن القصة زمن العشرية السوداء، وهو يتصفح الجريدة اليومية كعادته، فهو معتاد عليها وعلى روتينها الذي يشبهه بحياتنا اليومية، ولكنه في صبيحة هذا اليوم يستوقفه خبر يثير الانتباه 25 أكتوبر 1988م عناوين كبرى... كثير من الحبر الأسود، كثير من الدم قليل من الحياء.(25)

يتحسر الراوي على ما آل إليه وطنه، يتحسر على جماله ودفئه، ويجسد ذلك في صورة "حياة"، فالوطن له معنى الأمان والاستقرار، معنى جميل تحول في مرحلة من مراحل تاريخه إلى واقع مرير وأليم، تحول إلى جحيم بفضل أبنائه الذين انقلب إخلاصهم له إلى خداع، إلى دمار، إلى قلوب سوداء لا تعرف الرحمة، غير الخراب والفساد، أصبح الوطن صورة عن المجازر والفوضى التي عمت أرجاءه رائحة الموت والخوف في كل زاوية من زواياه، أرواح أبرياء أريقت دمائهم، قتلوا على يد أبناء وطنهم الذين تحولوا إلى وحوش بعد براءة بفضل التيارات والنزاعات المتزاحمة.

تنتهي أحداث الرواية بقتل شقيق الراوي ذات يوم من أكتوبر 1988م، جاء خبر موته هكذا صاعقة تحت علم تلك الأحداث التي هزت البلاد، والتي كانت الجرائد ونشرات الأخبار الفرنسية تتسابق بتعلمها مصورة مفصلة ومطولة، باهتمام لا يخلو من الشماتة.(26) فبتقاتل أبناء الوطن الواحد وتشتتهم خبر يشفي غليل الأعداء، فقد تحقق مرادهم بانقسام وتفرق أبناء الوطن الواحد.

كما صورت أحلام مستغانمي في رواية "عابر سرير" الوضع المزري الذي آل إليه الوطن في فترة العشرية السوداء فترة المحنة، وهي من أشد الفترات حرجا، إذ أشارت في الرواية مباشرة دون اللجوء إلى الرمز إلى المأساة التي صنعتها أطراف عديدة متشابكة، فهي لم توحِ وإنما وضعت عليها اليد متهمة ومدينة، فالرواية صورة عن وطن منكسر دمرته أيادٍ داخلية بالنهب والسلب، فأصبح لا يحوي إلا الخوف و الرعب و الإيذاء والتشريد، ترتسم منذ بداية الرواية صورة لوطن

المخاوف الذي أصبح العاشقون فيه يخشون على أنفسهم إن حاولوا أن ينهموا باللقيا والمواعيد، فالجزائر أصبح وطنا خلع رداء الأمومة، مبدلا الحماية إيذاء، وهذا ما يعبر به السارد في رواية "فوضى الحواس" بنبرة حزن عاتية: "هل يمكن لوطن أن يلحق بأبنائه أذى لا يمكن لحيوان أن يلحقه بنسله؟ هل الثورات أشرس من القطط في التهامها لأبنائها من غير الجوع؟"[27] وهي الحقيقة التي عشناها في فترة العشرية السوداء أصبح الإرهابي (الأخ) يقتل (أخاه) يعامل أصدقاءه وجيرانه وأبناء وطنه بعنف.

إذن سايرت الرواية الجزائرية في فترة العشرية السوداء المحنة الجزائرية، فسالت أقلام الروائيين باللغتين الفرنسية والعربية، وكتبوا عن الأحداث الدامية آنذاك من داخل الوطن وخارجه، فظهرت في الساحة الأدبية عناوين كثيرة لروائيين جزائريين، منها ما جاءت مراعية لجماليات وفنيات كتابة رواية، ومنها ما جاءت استعجالية آنية مواكبة للأحداث الراهنة؛ فكانت نصوصا روائية مختلفة ومتفاوتة من حيث رقيها وتألقها.

ومن الروائيين الذين كتبوا عن العشرية السوداء: الطاهر وطار، واسيني الأعرج، إبراهيم سعدي، عز الدين جلاوجي، رشيد بوجدرة، فضيلة الفاروق، أمين الزاوي، حميدة العياشي، مرزاق بقطاش، وغيرهم من الروائيين الجزائريين.

الخاتمة:

- تمكّنُ الروائيين الجزائريين من مواكبة أحداث العشرية السوداء؛ فصنعوا بذلك تجربة أدبية جديدة تميزت بالجد في الطرح.

- ترجمة الروائيين الجزائريين معاناة المجتمع الجزائري، وتجلى ذلك في صور العنف المتولد عن أسباب سياسية واجتماعية.

- استمرار معالجة الرواية الجزائرية للعنف التسعيني إلى يومنا هذا، كرواية "القلاع المتآكلة" سنة 2014م لمحمد ساري.

– عبرت الرواية في العشرية السوداء عن معاناة مختلف شرائح المجتمع عن طريق منح أدوار لشخصياتهم الورقية لتصوير الصراع السياسي والديني والعنف الدموي.

(***References***)

(1)– الجيلالي خلاص: أفق النجوم الشتوي (مقالات في الأدب والسياسة)، موفم للنشر والتوزيع – الجزائر، 2011م (ص 27).

(2)– العشرية السوداء ... حكاية الجزائر مع الإرهاب الإسلاماوي نفحات من زمن الحرية: مدونات عربية، أغسطس 2015م (ص1).

(3)– محمد عباس: الوطن والعشيرة (ترشيح أزمة 1991–1996م) (ص 68).

(4)– عبد العالي دبلة: الدولة الجزائرية الحديثة (الاقتصاد والمجتمع والسياسة) (ص 158).

(5)– عبد الله شطاح: مدارات العرب (فضاء العنف في روايات العشرية السوداء)، مطبعة ألف للاتصال والإشهار – الجزائر 2014م (ص 141).

(6)– المرجع نفسه (ص 142).

(7)– المرجع نفسه (ص 142).

(8)– المرجع نفسه (ص 142).

(9)– فايزة مصطفى: مقال "الأدب الاستعجالي يعود إلى الواجهة"، جريدة الأخبار، 2001م (ص1).

(10)– أحمد منور: ملامح أدبية (دراسات في الرواية الجزائرية)، دار الساحل – الجزائر، 2008م (ص 161).

(11)– المرجع نفسه (ص 162).

(12)– مخلوف عامر: الواقع والمشهد الأدبي (نهاية قرن وبداية قرن) المكتبة الجزائرية – الجزائر، 2011م، (ص 48).

(13)– غنية لوصيف: أثر العشرية السوداء في رواية فوضى الحواس لأحلام مستغانمي، السنة الخامسة، ع 8 جوان 2010م (ص 87).

(14)– سعاد حمدون: صورة المثقف في روايات بشير مفتي، مذكرة من متطلبات شهادة الماجستير، تخصص أدب جزائري معاصر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، 2010/2009م (ص 8).

(15)– إبراهيم سعدي: دراسات ومقالات في الرواية، منشورات السهل – الجزائر، 2009م (ص 64).

(16)– عبد الله شطاح: أدب المقاومة قراءة في الأدبية والالتزام، المدونة، مجلة علمية دورية تعنى بالدراسات الأدبية والنقدية تصدر عن مخبر الدراسات الأدبية والنقدية جامعة لونيسي علي، البليدة، دار التل للطباعة، ع2، 2015م (ص 54).

(17)– المرجع نفسه (ص 55).

(18)– المرجع نفسه (ص 57).

(19)– حبيب فاطمة الزهراء: ترجمة العناصر الثقافية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، رواية بم تحلم الذئاب لياسمينة خضرا، دراسة تطبيقية جامعة وهران، أحمد بن بلة، معهد الترجمة 2016م (ص 129).

(20)– عامر رضا: دنيا الوطن، رواية الأزمة المكتوبة باللغة الفرنسية وإشكالية الترجمة.

(21)– ياسمينة خضرا: بم تحلم الذئاب؟ (ص 87).

(22)– المصدر نفسه (ص 132).

(23)– بشير مفتي: المراسيم والجنائز (ص 84).

(24)– محمد ساري: القلاع المتآكلة، منشورات البرزخ – الجزائر، 2013م (ص 166).

(25)– أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، موفم للنشر، د.ط، الجزائر، 2002م (ص 19).

(26)– المرجع نفسه (ص 277).

(27)– المرجع نفسه (ص 49).